المقدمة

الحمد لله رب العالمين، ذي العزة والكبرياء، والصلاة والسلام على محمد بن عبد الله سيد الخلق، وخاتم الأنبياء.

وبعد، فإن الإحسان، صنو الجمال، هو المنهج الذي كتبه الله في كل شيء قولاً وعملاً، فعن شداد بن أوس رضي الله عنه قال: ثنتان حفظتهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحدَّ أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته»[1].

ويصيب النص الأدبي حدود الإحسان ومنهجه إذا تحققت فيه عناصر أربعة؛ معنى شريف خلقياً وفكرياً وإبداعياً، وإحساس نقي، وأداء مهذب، وغاية نبيلة. إذ الأدب في المفهوم الإسلامي على جهة العموم والاطلاق لون من ألوان الكلام، أو «بمنزلة الكلام، فحسنه كحسن الكلام، وقبيحه كقبيح الكلام»[2] وعلى جهة الخصوص والالتزام هو فن أدبي يعبر عن الشخصيّة الإسلامية في مفاهيمها وميولها نحو عناصر الوجود (الكون والإنسان والحياة) تعبيراً حيوياً مؤثراً.

وتعتصم رواية الشعر بالإحسان ومنهجه إذا كان للراوية موقف إيجابي مما يروي،

---

(١) رواه مسلم في صحيحه جـ ١٣/١٠٦ كتاب الصيد حديث رقم ٥٧.

(٢) رواه الطبراني في الأوسط وقال: لا يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم إلا بهذا الإسناد، وإسناده حسن (الهيثمي: مجمع الزوائد ١٢٢/٨) وانظر مشكاة المصابيح ١٣٥٥/٣، قال الألباني: حديث حسن.

بانتخاب ما حسن معناه، وجَمُل مرماه، من الحكم والقيم الخلقية والفكرية، والتنبيه على الفاسد المرذول من الفحش، والقبيح المنكر من الكفر، إذا روى ذلك اضطراراً لا اختياراً، للدلالة العلمية في الشاهد والمثل.

وفي الموقف الإيجابي تجاوز لمهمة التوصيل المعرفي بالحفظ والنقل إلى الارتباط بحركة التغيير التي يقصد إليها النشاط الأدبي في التواصل الجمالي والخلقي، بتربية الذوق وتهذيبه وصقله، وتشكيل نفسيّة المسلم وعقليته بالمفاهيم والميول القادرة على التسامي به نحو الرفعة والنبل.

وعلى الرغم من أن رواية الحفظ والنقل قد تمس جانباً من الإحسان بما يقع فيها من مرويات الشعر الحسن، أو بما ترمي إليه من غايات شريفة، فإن الأخذ بالإيجابية منهجاً في رواية الشعر، فيه نزوع إلى كمال الإيمان بمراقبة الحضور الإلهي والإحساس به في كل أمر، ونهوض نحو تمام اليقين بمطابقة الفعل الظاهر لصدق العمق الباطن.

ومعنى ذلك أننا لا ننكر مأثور القول «ناقل الكفر ليس بكافر» منطلقاً لرواية الحفظ والنقل، وما احتطبه الرواة في حماها من مرويات جمعت إلى الحسن النافع القبيح الفاسد، وإلى شرف الغاية هبوط الوسيلة، لكننا ننكر أن يكون تحرير هذه القاعدة من كل قيد متنفساً لأصحاب الأهواء الشعوبية، وملاذاً لذوي المقاصد المذهبية، في استباحة حمى القيم بالاغراء بالفاحشة والترويج للرذيلة والتبذل، ونزع رداء الخوف عن الكفر، بتشجيع العدوان على العقيدة والخروج على ثوابت الإسلام بمنكرات الأقوال والأفعال، وإضفاء الشرعية على ألوان المجون والفسق والإلحاد، بالإيهام بشهود الخلفاء والأمراء لمجالسها، وإغضاء الفقهاء عنها، ورضى أهل العلم وإقرارهم بها، تجريحاً لسيرتهم، وتشويهاً لسلوكهم، ونيلاً من منزلتهم، وتوهيناً لأمرهم وآرائهم. وكل ذلك بمرويات ذات اسناد ورجال، فيها الكذابون والمتروكون والمجهولون.

على أن بين الإسناد والإحسان رحماً موصولة، إذ الإسناد من الدين، فعن محمد بن سيرين قال: «إن هذا العلم دين، فانظروا عمن تأخذون دينكم»[1] فهو أساس لكل العلوم النقلية. وإذا كان هذا البحث لم يفرد للإسناد في رواية الشعر فصلاً بين أبوابه؛ لأن له مجالاً آخر للتناول يستوعب شموله ويتنبه لدقيقه، فقد سلك سبيله في قبول بعض المرويات أو ردِّها؛ بتوثيق الرجال أو تجريحهم، أو في الطعن في عدالتهم، كما هو الحال في مسائل نافع بن الأزرق وابن عباس، وموقف ابن عباس من رائية عمر بن أبي ربيعة، وبعض الأخبار المروية عن أبي الفرج الأصفهاني.

وليس الإحسان محصوراً بمرحلة دون غيرها من مراحل تاريخ رواية الشعر، فكما أن له حضوراً مميزاً في مرحلة الحفظ والإنشاد في القرن الأول الهجري، فإن له أيضاً نصيباً ملحوظاً في القرون التالية، سواء في مرحلة الجمع والضبط والإتقان، أو الأخذ عن شيوخ العلم الذين صارت الرواية لديهم إلى السماع عنهم، أو القراءة عليهم في الكتب والمصنفات الأدبية المتنوعة المناهج والاتجاهات.

وقد فطن إلى الإحسان منهجاً بأسسه النظرية، ونهض بعناصره التطبيقية، كثير من أعلام الرواية والنقد على اختلاف اتجاهاتهم اللغوية والأدبية والفكرية، مثل أبي عمرو بن العلاء والأصمعي ويونس بن حبيب وابن سلام الجمحي والمبرد وأبي علي القالي وابن السيد البطليوسي من اللغويين، والجاحظ وابن قتيبة وأبي هلال العسكري والحصري القيرواني وابن بسام الشنتريني والشريشي من النقاد، وابن هشام وابن خلكان وابن خلدون من المؤرخين، ، والشافعي وابن مسكويه وابن حزم من الفقهاء، وابن حبان وأبي سليمان الخطابي وغيرهم من المحدثين، وفي ذلك شمول دافع لما قد يحمل إليه الوهم من أن الإحسان اتجاه محدود وجد ضالته في بيئة الفقهاء وذوي المشارب الدينية دون غيرهم.

وفي حمى هذا الشمول كان لمنهج الإحسان معالم أدبية، وقضايا نقدية،

---

(١) صحيح مسلم: باب بيان أن الإسناد من الدين ١/ ١٤-١٥

استوعبتها أبواب أربعة، انتظمت في ثلاثة عشر فصلاً.

كان البـاب الأول لرواية الشعر وشرف المعنى، وقد قيدت زمانه بالقرن الأول الهجري حيث الخيرية معقودة لأهله فيما أخبر به عليه الصلاة والسلام: «خير أمتي قرني ثم الذين يلونه»[1] لتأصيل أسس الإيجابية في رواية الشعر، من خلال ما تمثل به الرسول صلى الله عليه وسلم ومرويات الصحابة والتابعين.

ففي الفصـل الأول تنـاولت الخـلاف الذي جرى بين أهل العلم في قول الله تعالى: ﴿وما علّمناه الشعر وما ينبغي له﴾ وحاولت التوفيق بين من قال بان النفي في الآية واقـع على الإنشـاء والإنشـاد، ومن قال إن النفي مقصـور على الإنشاء دون الإنشاد، وخلصت من ذلك إلى أن الرسول صلى الله عليه وسلم تمثل بما شرف معناه من الشعر التعبدي والشعر الخلقي.

وفي الفصل الثاني عرضت لمرويات الصحابة والتابعين من الشعر ذي المعاني الشريفة في الحكمة والقيم الخلقية والفكرية في شعر المدح والتأساة والتعزية والقص والطرافة، ومن الشعر ذي الأغراض العامة، ذهاباً إلى إثبات استمرارية حركة رواية الشعر في الإسلام، وتصويباً لما يقال: إن المسلمين قبروا عمداً شطراً من الأدب الجاهلي، وتوجيهاً له.

وفي الفصل الثالث: وقفت عند شعر الصراع بين الكفر والإيمان ممثلاً بنقائض المسلمين والمشركين وشعر الرّدة.

أما نقائض المسلمين والمشركين فقد أوضحت موقف القرآن الكريم منها في قول الله تعالى: ﴿وانتصروا من بعدما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون﴾ وفصلت القول في موقف الرسول صلى الله عليه وسلم الذي منح شعر المسلمين في

---

(١) رواه البخاري ومسلم عن عمران بن حصين، قال عمران: فلا أدري أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثة.

هذا الصراع شرفاً بتأييده له، ودعائه لشعرائه، وعدّه لوناً من ألوان الجهاد، في حين منع رواية شعر المشركين وانتشاره بأسلوبين: إهدار دم شعرائه، والنهي عن تداول بعض قصائدهم. على أنني دققت ما وسعني الجهد في تخريج أحاديث هذا النهي.

وحددت موقف الصحابة رضي الله تعالى عنهم من رواية شعر النقائض من خلال أُطر ثلاثة؛ رغبة بعض الصحابة عن تداولها حفاظاً على تماسك الأمة، وحرص بعض آخر على أن تظل شواهد على تاريخ الدعوة الإسلامية، فضلاً عن القصد إلى الاعتبار بما مضى وتذكر نعمة الله على الهدى، وناقشت أثناء ذلك بعض الباحثين في فهمهم لفقه بعض الأخبار والمرويات المتعلقة برواية هذه الأشعار، من مثل ما جرى بين عمر بن الخطاب وحسان بن ثابت وهو ينشد منها في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما جرى كذلك بين حسان وعبد الله بن الزبعرى وضرار بن الخطاب من تناشد لها، واتبعت ذلك بالتماس أسباب غياب شعر المشركين عن المصادر الأدبية بأمرين: شعراء المشركين الذين أسلموا، ورواة الشعر.

وأما شعر الرّدة فاكتفيت فيه بالإبانة عن أسباب غياب أسلوب النقائض عنه، التي أدركتها في اتساع المساحة الجغرافية التي جرى فيها الصراع مع المرتدين، الأمر الذي أعوزه إلى المركزية القبلية، وفي قصر عمر هذه الردة وسرعة القضاء عليها، وعدم استنهاض أبي بكر رضي الله عنه الشعراء للمشاركة فيها، إذ أن شعر المرتدين كان مفتعلاً لا تأثير له في نظره، وأردفت ذلك بتحليل لبعض قصائد متمم بن نويره في رثاء مالك، وإعجاب عمر بن الخطاب رضي الله عنه بها، قصداً إلى تقرير أن الصدق بجانبيه الخلقي والفني، والواقعية في التصوير والتصور، من لوازم التعطف الإسلامي على فن القول وقبوله رواية ونقداً.

وكان الباب الثاني لقيم الشعر النفعيّة اعتماداً على الرؤية النقدية في أن غاية الشعر التعليم والامتاع معاً، بمعنى أن الشعر يعلم بالمتعة، إذ لم يغب الإحسان بمنطلقاته الإيجابية عن هذه الغاية، وتوضيح ذلك في فصول ثلاثة:

الفصل الأول: (التأديب والتربية)، وقد رعى أمراء المسلمين وأدباؤهم وفقهاؤهم وعلماؤهم هذه الغاية، جاء ذلك في رسائل عمر بن الخطاب إلى ساكني الأمصار، وتوجيهات بني أمية إلى مؤدبي أبنائهم، وفي بعض رسائل الجاحظ وابن قتيبة وابن مسكويه وابن حزم.

والاتفاق معقود بين هؤلاء على أثر رواية الشعر الحسن شكلاً ومضموناً في توجيه سلوك الناشيء وتحريكه نحو الخير والفضيلة، وهو منعقد أيضاً على إيجاد النسبة والتناسب في محصول المتأدب من العلم النافع والشعر، غير أن الخلاف واقع بينهم حول المرحلة الأنسب لذلك كله.

والفصل الثاني: (الشواهد العلمية). خصصته للشواهد الشعرية في تفسير غريب القرآن الكريم دون غيرها غالباً، فأيدت الشك الذي يدور حول مسائل ابن الأزرق وابن عباس، بتضعيف الرجال في روايتها، وبخروج الأجوبة عن مطالب الأسئلة في مقصدها، وبالاستعانة بالشواهد الشعرية ذات الطوابع الإسلامية في الدلالة على المعاني الجاهلية.

وعلى الرغم من نحل أغلب هذه المسائل فإن الواضعين لها لم يفارقوا الإحسان فيها بدلالتين: كثرة شواهد الشعر الإسلامي، ونزوع الشاهد العلمي منزعاً خلقياً دينياً في الغالب.

واتخذت الفراء مثالاً في تفسير غريب القرآن في القرن الثاني الهجري، حيث لم يتردد في اتخاذ شعر الرفث شاهداً معيناً في التفسير، ولم يبرح الإحسان في ذلك، إذ لم يقصد إلى الفحش، ولم يطلبه لذاته.

وتعلل أبو هلال العسكري بهذه الغاية في جمعه أعيان المعاني بما فيها من سخيف النماذج وشنيع الألفاظ، وكذلك فعل عبد القاهر الجرجاني في دفاعه عن رواية الشعر وقيمته، فالراوي عنده حاك، وليس على الحاكي شيء إذا لم يرد بحكايته أن ينصر باطلاً أو يسوء مسلماً.

والفصل الثالث: (الامتاع الأدبي) كان أمره ملحوظاً فيه الحَسَن من الشعر وطلبه، والقبيح وتجنّبه، وقد بلورت هذا الأمر مواقف الصحابة والتابعين، على الرغم من الاختلاف حول شعر عمر بن أبي ربيعة رفضاً وتسامحاً، ولا يؤخذ بموقف ابن عباس دليلاً في هذا المجال؛ لأن المروية ضعيفة منكرة اسناداً ومتناً، ورواية ودراية.

ولما كان للامتاع صلة بالترويح عن النفس، فقد حرصت على عرضه من خلال المقولات النظرية، والمواقف التطبيقية خاصة في شعر الرفث والمجون. ففصلت القول في موقف الإمام الشافعي من الامتاع بالشِعر الحسن الذي تتنفس فيه المشاعر، وتتهدهد به العواطف، وأشرت إلى مذهب الجاحظ القائم على إباحة شعر الرفث والمجون بروايته بألفاظه دون تغيير أو تحسين، وعطفت بعد ذلك على موقف ابن قتيبة المترخص في ذلك بالقليل العارض دون الديدن المتكرر، واتبعت ذلك بمتابعة الحصري القيرواني لابن قتيبة في الاستمتاع بالنوادر والطرائف، مع الاحتراس بضرورة تعمق السامع لمراميها خاصة فيما يتعلق منها بالدين، وفي ضوء هذا التباين في المذاهب عرّجت على الرسالتين المتبادلتين بين ابن الانباري وابن المعتز حول مجون أبي نواس.

وكان الباب الثالث: (اتجاهات النقاد في رواية القبح) تطبيقاً عملياً للإحسان في مصنفات الرواة الأدبية والتاريخية، ورصدت اتجاهات النقاد في هذا المجال فكانت ثلاثة:

الفصل الأول: (الإعراض عن رواية الشعر الفاسد) من هجاء ومجون وفحش وخروج على العقيدة، وكان الأصمعي من أقدم النقاد التزاماً بنهج الإحسان في إعراضه عن رواية نقائض جرير والفرزدق، وإضرابه عن شعر السيد الحميري لنيله من السلف الصالح بالسبِّ والتجريح. وأعرض أبو اسحاق الحصري القيرواني عن شعر ابن الرومي في هجاء الأخفش وعن شعر لراشد بن اسحاق (أبو حكيمة) كان فاحشاً، وكذلك كان موقف ابن بسام الشنتريني من نقائض جرير والفرزدق ومن جرى مجراهما من شعراء الأندلس مثل ابن صارة الشنتريني والسميسير؛ لأن الهجاء سباب وسفاهة

يتحمل الراوية وزر ما يحمل منها، وأعرض ابن خلكان عن رواية شعر كثير ممن ترجم لهم، مثل ابن التعاويذي وابن المعلم وابن عنين وابن الحجاج العراقي وشميم الحلي وغيرهم.

وفي الفصل الثاني (إسقاط الفاسد من رواية الشعر) كان ابن هشام صاحب منهج متميز سابق في رواية نقائض المسلمين والمشركين، حيث أسقط منها ما كان مُقْذِعاً يمس الإنسان في ذاته أو عرضه، سواءً أكان المهجو مسلماً أو كافراً، وقد تلمست أسس الاقذاع عنده من خلال طلب الأبيات المسقطة في مظانها، فإذا مرجعها إلى شتم الحي بالميت، والانتقاص ممن غدا بنعمة الله مسلماً مؤمناً، بالتحقير في أنسابهم، والمفاضلة بينهم وبين غيرهم، والرمي بالمخازي النفسية والسلوكية والتهكم والسخرية، والقذف بفعل الفواحش، ووقفت بالتحليل عند إحدى نقائض حسان بن ثابت التي وصف ابن هشام الهجاء فيها بالإحسان، تمييزاً للمقبول من المرفوض في هذا المجال، وذهاباً إلى تأكيد الإحسان في رؤيته النقدية.

وجرى المبرد في كتابه الكامل وفق هذا الاتجاه فأسقط شعر الهجاء الذي دار بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان، وحاولت التوفيق بين اتجاهه هذا وما أورده من نقائض جرير والفرزدق في كتابه المذكور.

ولم يكن هذا الاتجاه قصراً على المشارقة دون المغاربة، فقد أسقط ابن السيد من روايته لشعر اللزوميات بعض أبيات أبي العلاء المعري التي تمس العقيدة؛ وكذلك فعل ابن بسام الشنتريني في شعر المنفتل وعبد الجليل بن وهبون، وأسقط الشريشي أيضاً من مروياته ما كان هجاء أو فحشاً أو مجوناً.

والفصل الثالث (نقد المعاني الفاسدة من الشعر المروي) وهو اتجاه إيجابي في النص على القبح سواء في مجال التأريخ الأدبي (التراجم) أو التطبيق النقدي (النصوص الأدبية)، ويشمل هذا الاتجاه أحكاماً نقدية على مشاهير الشعراء مثل امرىء القيس، وعمر بن أبي ربيعة والفرزدق وأبي نواس، والمتنبي، وأبي العلاء

المعري، وبعض شعراء الأندلس. وتتمثل إيجابية النقاد في هذا الاتجاه برفض شعر الكفر، والإضراب عن تفسير معانيه، وإنكاره والتعوذ منه، وبتأصيل الفحش في معاني الشعراء، والتنبيه على النظائر والأشباه في تداولهم له.

ويأتي الباب الرابع (مرويات جمالية وقيم خلقية) معادلاً للباب السابق في توازن الإحسان، حيث شمل نماذج شعرية من أبيات وقصائد تنزع عن الإحسان في تكامل شرف المعنى فيها بحسن الأداء ونقاء الإحساس ونبل الغاية، بملاحظات نقدية موجزة مركزة، اجتهدت ما وسعني السبيل في الوصول إلى إيجاد مقصدها في النصوص، بتحليل أدبي لبعضها، وجدت فرصة فيه لتأكيد منحى تكامل القصيدة الجاهلية والإسلامية وتناغم عناصرها، وإن تعددت فيها الأغراض والموضوعات، وتركت بعضاً آخر منها دون تحليل اكتفاء بدلالتها على الإحسان في الانتخاب الأدبي.

وكما أن هذه المرويات تستوعب فئات النقاد المتعددة، واتجاهاتهم الفكرية المنوعة، فإنها تغطي أغراض الشعر من مدح وفخر وغزل ورثاء ووصف، ومقاصدها من الوعظ الخلقي والامتاع الجمالي الفني، وقد جاء عرض ذلك في فصول أربعة:

الفصل الأول: (مرويات أولي الأمر والسيادة) تلمست فيه صدى أمر عمر بن الخطاب في رواية قصيدة لبيد بن ربيعة اللامية، وطلب عبد الملك بن مروان رواية قصيدة ذي الأصبع العدواني، ورصد هارون الرشيد عشرة آلاف درهم لمن يروي قصيدة الأسود بن يعفر النهشلي الدالية.

وفي الفصل الثاني (مرويات اللغويين ورواة الشعر) حللت قصيدة المثقب العبدي النونية في محاولة للوصول إلى سرٍّ إعجاب أبي عمرو بن العلاء بها، وحضّه الناس على تعلم أمثالها.

واكتفيت بإيراد مقولة يونس بن حبيب مقرونة بقصيدة عدي بن زيد الرائية، ومقولة الأصمعي مقرونة بالثناء على قصيدة الحسين بن مطير الرائية في الغزل، ومختارات المبرد من شعر المولدين الحكيمة المستحسنة، وإعلاء القالي من شأن أبيات

أيمن بن خريم الأسدي في التعفف عن شرب الخمر ببلوغه الأربعين من عمره.

وفي الفصل الثالث (مرويات الأدباء والنقاد) وقفت عند النماذج الشعرية التي نصّ الجاحظ على أنها تصلح للحفظ والمذاكرة، على أن الوقفة الأطول كانت عند النصوص التي أوجب ابن طباطبا روايتها والتكثر لحفظها، وهي لواحد وعشرين شاعراً، نظر إلى الإحسان فيها من جانبين: أنها تمثل مدار المثل الأخلاقية عند العرب والمسلمين، وأنها تقوم على الصدق وتحقق مبادئه وأنواعه. وأردفت ذلك بمحاولة التماس دلالات المروءة التي خص بها أبو هلال العسكري قصيدة أبي محجن الثقفي القافيّة.

وفي الفصل الرابع (مرويات الفقهاء والمحدثين) اعتنيت بمقولة ابن حزم في تقريظ قصيدة ابن زريق العينية، وبما انتخبه ابن حبّان في كتابه روضة العقلاء ونزهة الفضلاء من الشعر الواضح المطمع الممتنع، وبما جاء في كتاب العزلة لأبي سليمان الخطابي من شعر محكم النسج، وجزل شديد الأسر.

واعتمدت في اخراج أبواب هذا البحث وفصوله على المنهجين التاريخي والتحليلي، أما المنهج التاريخي فكان إطاراً عاماً لاحتواء الظاهرة، بالكشف عن حضور الإحسان وثبات اطراده معياراً في رؤية الرواة وأحكامهم النقدية، من غير عناية برصد تطور هذه الظاهرة كثيراً.

وأما المنهج التحليلي فكان تعمقاً لدلالة هذه النصوص الإخبارية والنقدية على أثر الإسلام في توجيه الرواية والنقد، توجيهاً هادفاً إلى رفعة الإنسان والأمة نحو السموّ والكمال.

وما كان لهذا البحث أن يستوي على سوقه لولا توفيق الله وفضله الذي تتم به الصالحات، أسال الله بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يتقبل هذا العمل بمنه وكرمه، وأن يجعله من العلم النافع الذي لا ينقطع أجره، وأن يغفر لي فيه ما زللت فيما اجتهدت، إنه هو البرّ الرحيم.

د. مصطفى عليان مصطفى عليان

مكة المكرمة في غرة ذي الحجة ١٤١١هـ

١٣ حزيران ١٩٩١م